إستراتيجية الإقناع
في آيات الرحمة المبدوءة بـ (قُلْ)
مقاربة لغوية تداولية

إعداد:
أ. م. د. عائشة خضر أحمد هزاع
قسم اللغة العربية بكلية التربية للبنات
جامعة الموصل – العراق

المقدمة

ليس خافيًا أنه ليس بوسع أي باحث الإلمام بكل ما ورد في القرآن الكريم عن الرحمة، ولاسيما أن سياقاتها تنوعت بتنوع المواقف والموضوعات في القرآن، من هنا حرصت الباحثة على تناول جانبًا من هذه الموضوعات وتحديدًا تلك التي اقترنت بالفعل (قُلْ)، والهدف من اختيار هذه السياقات لما في فعل الأمر من قوة إنجازية أولًا، وظاهرة خطاب الله لرسوله الكريم ﷺ بالفعل (قُلْ) التي نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ثانيًا، وسنحاول أن نتبين الأغراض والمقاصد من اقتران آيات الرحمة بهذا الفعل.

مشكلة البحث

لكل خطاب إستراتيجية مناسبة يعمد إليها المرسل في خطابه، لتعبر عن قصده وتحقق هدفه، ولقد تميز القرآن الكريم بإعجازه اللغوي وبأنساقه التركيبية التي انفرد بها، ومن هنا تولدت مشكلة البحث في محاولة الكشف عن الدلالات والمقاصد من اقتران الفعل (قُلْ) بسياقات الكلام عن الرحمة التي وجدناها متنوعة، وسنحاول الكشف عما بوسعنا كشفه من دلالات ومقاصد من خلال البنى التركيبية لهذه الآيات، والموضوعات التي أُريد التنبيه عليها من خلال هذه الصياغة، وأوجه العلاقة التي

جمعت الفعل (قُلْ) بما يليه من خطاب، وغير خافٍ ما في هذا الفعل من قوة إنجازية تتحقق بمجرد النطق به، وتوظيف هذا الفعل يلمح إلى أهمية ما يليه من خطاب، ولاسيما أن الله هو الآمر، والرسول ﷺ هو المأمور.

منهج البحث:

عمدت الباحثة إلى توظيف منهج التحليل اللغوي والتداولي.

خطة البحث:

توزعت خطة البحث بين تمهيد ومبحثين، فعمدنا في التمهيد إلى بيان مفهوم إستراتيجية الإقناع وأبعادها، ووظائف الفعل (قُلْ) اللغوية والتداولية، فضلًا عن تأصيل لمفهوم الرحمة في الحقل اللغوي والاصطلاحي. وفقًا لما تتضمنه إستراتيجية من آليات جاء تقسيم البحث على مبحثين. تخصص المبحث الأول بالبعد الحجاجي لاستعمال الأدوات اللغوية في آيات الرحمة. وتصدى المبحث الثاني للبعد الحجاجي لاستعمال العلاقات شبه المنطقية (السلم الحجاجي) في آيات الرحمة. هذا وخلص البحث إلى خاتمة لُخصت فيها أهم النتائج. ومن الله التوفيق.

إستراتيجية الإقناع: المفهوم والأبعاد

تستعمل اللغة بكيفيات منظمة ومتناسقة تتناسب مع مقتضيات السياق، وهنا تبرز سمة التخطيط عبر تَبَني إستراتيجية معينة للوصول بهذه الكيفيات اللغوية إلى تحقيق أغراضها ومقاصدها.

ومصطلح (الإستراتيجية) ذو مرجعية حربية، إذ يكثر تداوله بالعلوم الحربية، فدخول المعركة لابد من أن يسبقه تخطيط، وأن نستعين بإستراتيجية محكمة لبلوغ الهدف، وذلك بطرائق وأساليب يتم وفقها إنجاز أقوال في

سياق ونسق محكمين بقواعد الخطاب[١]، فالإستراتيجية خطة في المقام الأول للوصول إلى الغرض المنشود، وهي خطة ذات بعدين: أولهما: البعد التخطيطي، وهذا البعد يتحقق في المستوى الذهني. وثانيهما: البعد المادي الذي يجسّد الإستراتيجية لتتبلور فيه فعلًا على أرض الواقع، وتمثله اللغة[٢].

وإستراتيجية الإقناع تنضوي تحت إستراتيجيات الخطاب، وتعني الأخيرة أن الخطاب المنجز يكون خطابًا مخططًا له بصفة مستمرة، إذ يعمد المرسل في خطابه إلى توظيف إستراتيجية مناسبة تعبر عن مقصده وتحقق هدفه[٣]. وهي إستراتيجية تداولية، تكتسب اسمها من هدف الخطاب، وينبني فعل الإقناع وتوجيهه دومًا على افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصًا المرسل إليه، وتستعمل هذه الإستراتيجية من أجل تحقيق أهداف المرسل. وهناك عدة مسوغات ترجح استعمال إستراتيجية الإقناع من أهمها[٤]:

- أن تأثيرها التداولي في المرسل إليه أقوى ونتائجها أثبت وديمومتها أبقى، لأنها تتبع من حصول الإقناع عند المرسل إليه غالبًا.
- فضلًا عمَّا تحققه من نتائج تربوية، إذ تستعمل هذه الإستراتيجية في الدعوة، وهذا ما نجده ماثلًا في دعوة الرسول ﷺ سواء في القرآن أو في السنة النبوية.
- الأخذ بتنامي الخطاب بين طرفيه (المرسل والمرسل إليه) عن طريق استعمال الحجاج، فالحجاج شرط في ذلك، لأن من شروط التداول

(١) ينظر: إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية، رسالة تقدمت بها صفية حمادو إلى جامعة مولود معمري-تيزي وزو/ الجزائر- كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية لنيل شهادة الماجستير: ٨٠

(٢) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري: ٥٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٦.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٤٤-٤٤٧.

شرط الإقناعية، فالمرسل عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته، فإن مطالبته لا تكتسي صفة الإكراه، ولا تندرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلًا استدلالية متنوعة تجر الغير إلى الاقتناع برأي المحاور.

وللوصول إلى مستويات إقناعية في أي خطاب لابد من آليات نستعين بها لتحقيق هذه الغاية، ويعد الحجاج الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع، وللحجاج تعاريف كثيرة، بيد أن أكثرها شمولًا التعريف الذي وضعه بيرلمان وتيكيتاه، إذ يجمع بين شكل الحجاج والغاية منه، إذ يريان أن "إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حِدّة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو بالإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل باللحظة الملائمة".

والملاحظ أن هذا التعريف يولي الإقناع مكانته بأن جعل منه لُبَّ العملية الحجاجية، كما اعتبره أثرًا مستقبليًّا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب، لينتج عنه القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف ما سواء بالإقدام أو بالإحجام، وبهذا فدور الحجاج يقف عند تحقيق الإقناع. وهذا الحد هو ما يمنحه صلاحية لاستعماله آلية في السياقات المتنوعة مثل الدعوة إلى الله، وطلب الحقوق، والإقلاع عن المخدرات، وما إلى ذلك[1].

إن اللغة بوصفها عنصرًا تواصليًّا فعالًا تعد الوسيلة المثلى لتجسيد الفعاليات الحجاجية، بأساليب تخضع للمقتضيات السياقية، وهذه (الفعالية الحجاجية، باعتبارها فعالية خطابية لا تظهر إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية، فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكارية باعتبارها متطلبات

(١) ينظر: إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية،: ٤٥٦-٤٥٧.

جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية، هكذا تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوي الحجج وتزيد من فعاليتها، أي تعمل لمصلحة التأثير والإقناع)[1]. ولقد حرص البيان القرآني في خطابه لمتلقيه على تعزيز دعوة الرسول ﷺ بالحجج والبراهين التي طالما دفعت بهم إلى التسليم والإذعان والتصديق والاقتناع بصدق دعوته عليه الصلاة السلام، بل وتبنيها بدخولهم في الإسلام.

قُلْ: وظائفها اللغوية والتداولية

بادئ ذي بدء إن هذا الفعل أخذ حيزًا لافتًا للانتباه في الاستعمال القرآني، نظرًا لكثرة وروده، وهو خطاب موجه إلى الرسول ﷺ، وهنا تتزاحم في الذهن تساؤلات عن الأغراض والمقاصد، التي تستدعي توظيف هذه المادة المعجمية، وبهذه الصياغة النحوية واستحضارها في سياقات دون غيرها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرسول ﷺ مكلف بقول كل آية تُوحى إليه، فلماذا يُستحضر الفعل (قُلْ) في آيات ولا نجده في آيات أخرى؟

وللشيخ محمد متولي الشعراوي وقفة عند هذا الفعل وبواعث توظيفه والتبليغ بذكره على لسان الرسول ﷺ، وذلك حين يقول: «ولنا أن نعرف أن كل «قل» إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول ﷺ عن ربه، بلاغ للأمر وللمأمور به، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول ﷺ ذلك لكان قد أدى «المأمور به» ولم يؤد الأمر بتمامه. لماذا؟ لأن الأمر في «قل».. والمأمور به ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وكأن الرسول ﷺ في كل بلاغ عن الله بدأ بـ«قل» إنما يبلغ «الأمر» ويبلغ «المأمور به» مما يدل على أنه مبلغ عن الله في كل ما بلغه من

(١) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، عالم الفكر، العدد٢، المجلد ٤٠- ٢٠١١: ٦٩.

الله. إن الذين يقولون: يجب أن تحذف «قل» من القرآن، وبدلًا من أن نقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] فلننطقها: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. لهؤلاء نقول: إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى «المأمور به» ولم يؤد «الأمر»»[1].

ولعل في استعمال هذا الفعل تبليغ مزدوج وتكرار لما بعد فعل القول، إذ إن أمر الله لنبيه الكريم أن يقول، هو إخبار وتبليغ أول من الآمر إلى المأمور بأن يقول: كذا وكذا، والتبليغ الثاني يتمثل في إشهار هذا الخطاب بين الناس، وبذكر الفعل، وكأن في هذا الفعل تنبيه وتذكير للمخاطبين أن القرآن هو وحي من عند الله ﷻ، وليس من عند الرسول يقوله من ذات نفسه، وهذا تفنيد لتلك المقولات التي وجهت إلى الرسول ﷺ من لدن الكفار بأن القرآن ليس منزلًا، وأنه ابتدعه الرسول ﷺ، فمجيء هذا الفعل يومئ إلى وجود سلطة عليا آمرة، فلا قول ولا فعل يكون إلا بمقتضى هذه السلطة.

والقضية الأخرى على صلة بالمادة اللغوية ودلالاتها المعجمية، فالقَوْل: الْكَلَام على التَّقْرِيب، وأصله (قول) وَهُوَ كل لفظ قَالَ بِهِ اللِّسَان تَاما كَانَ أَو نَاقِصًا. وَ « قلت» فِي كَلَام الْعَرَب: إِنَّمَا وَقعت على أَن تحكي بهَا مَا كَانَ كَلَامًا لَا قولا. يَعْنِي بِالْكَلَامِ: الْجمل، كَقَوْلِك: زيد منطلق وَقَامَ زيد. والكلام لابد من أن يكون مقترنًا بالفائدة، وإلا لا يعد كلامًا. فَأَما التجوز فِي تسمية الاعتقادات والآراء قولًا، فَلِأَن الاعْتِقَاد يخفى فَلَا يعرف إِلَّا بِالْقَوْلِ، أَو بِمَا يقوم مقَام القَوْل من شَاهد الْحَال، فَلَمَّا كَانَت لَا تظهر إِلَّا بِالْقَوْلِ، سميت قولًا، إِذْ كَانَت سَببا لَهَا، وَكَانَ القَوْل دَلِيلا عَلَيْهَا، كَمَا يُسمى الشَّيْء باسم غَيره إِذا كَانَ ملابسا لَهُ وَكَانَ القَوْل دَلِيلًا عَلَيْهِ[2]. من هنا ومن خلال هذا التفسير المعجمي لفعل القول يمكن أن نستنتج المقتضى المعجمي الذي يشير إلى أن وجود فعل الأمر (قُلْ) فيه معنى الاعتقاد، لأن كلام الله متضمن شرائعه وأحكامه، والرسول مؤمن بكل ما يُوحَى إليه، فعندما يجهر الرسول

(١) تفسير الشعراوي: ٣/١٤١٧-١٤١٨.
(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٥٦١.

ﷺ بهذا الفعل يكون قد جهر بمعتقده ورأيه الذي يؤمن به، فمنطوق الفعل (قُلْ) يحيل إلى مقتضاه المعجمي وهو الاعتقاد، فضلًا أن الرسول ﷺ ملزم بتوصيل القرآن كما يتنزل عليه من دون زيادة أو نقصان، فهو ﷺ مُبَلغ للرسالة الإلهية. وهنا تبرز الوظيفة التداولية لهذا الفعل التي تخدم مهمة الرسول ودعوته، لأن في الأصل الفعل قال ومشتقاته تستعمل ليُحكى بها، قال سيبويه: «واعلم أن «قلتُ» إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها»[1]. أي: يُحكى بها القول، وهو استعمال يُخرج هذا الضرب من فعل «قال» عن سائر الأفعال الموجودة في اللغة، ويفرده بحكم لا يتوفّر في سواه، فهو بمثابة آلة التسجيل الطبيعية التي توفرها اللغة للإنسان، فاستعملها لنقل الكلام من دون أن ينتظر اختراع الآلات التي تستعمل لهذا الغرض[2].

يتضح لمتأمل السطور السابقة أن المقتضى المعجمي لفعل القول يفضي إلى أنه لا بد من أن يتلفظه اللسان أي: ينطقه، وهذا الفعل اللغوي يكتنز قوة إنجازية تتحقق بمجرد القيام بهذا العمل، وهو فعل القول انطلاقًا من المقتضى المعجمي له الذي مفاده أن القول (كل لفظ قَالَ بِهِ اللِّسَان) فهذه الكلمة لها في ذاتها مقتضى معجمي، حتى إذا ما أقحمت في التركيب غدت مسؤولة عن ظهور مقتضى ذلك التركيب، انطلاقًا من معناها المعجمي، وبناء عليه يكون من شأن المقتضى المعجمي أن يسم الملفوظ الذي يحمله بمسمى دلالي وحجاجي خاص، أو ما يسمى (بوقع الكلمة المعنوي)[3].

والمسألة الأخرى التي لابد من النظر فيها هي الوظيفة النحوية التي ينهض بها الفعل (قُلْ)، وهي كونه فعل أمر، ولا شك أن لهذه الصياغة النحوية وظائف تواصلية إبلاغية أو أغراض ومقاصد، لا يمكن أن تتحقق إلا بهذه الصياغة، وفي الأمر لا بد من النظر إلى أحوال المتكلم ومنزلته

(١) الكتاب: ١/١٢٢. وينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش: ٢/٦٢٣.
(٢) ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: ٢/ ٦٢٢.
(٣) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة: ٨٨ و٩٠.

مقارنة مع المخاطب، وهذه رؤية تداولية [1]، لأن الأمر بصيغته هذه يعد فعلًا ذا قوة إنجازية، إنه فعل لا يستعمل للوصف والإخبار، وليس خاضعًا للصدق أو الكذب، فمن خلال هذه الأفعال يمكن إنجاز أفعال، فمجرد النطق بها يشكل في حد ذاته فعلًا معينًا، أي: نشاطًا يهدف إلى تغيير واقع، وللتأثير في الغير وفي الأشياء، ومن هنا تتجلى سلطة الكلام وسلطانه وقوته الإنجازية، وفعل الأمر يتمثل إنجازه في محاولة دفع المخاطب للقيام بفعل معين، ومعلوم أن المتكلم لا يصدر أمرًا إلا إذا كان راغبًا فعلًا في أن ينفذه المخاطب، فهو إلزام من قبل المتكلم، والتزام من قبل المخاطب[2]، وعندما يكون الأمر صادرًا من الله ﷻ ستتضاعف قوته الإنجازية، من حيث إن القصد من ورائه تحقيق مصلحة للعباد، وإحداث التأثير ومن ثَمَّ الإقناع.

تأصيل مفهوم الرحمة في الحقل اللغوي والاصطلاحي.

لن نأتي بجديد إذا قلنا: إن الرحمة مبدأ راسخ في الإسلام، إنها متماهية بدعوته وشرائعه، وليس بالضرورة ذكر لفظ الرحمة أو إحدى مشتقات هذا الجذر للتدليل على رحمة الإسلام، إذ كثيرًا ما نستشعرها بكل ما جاء في القرآن الكريم، والأفعال والأقوال التي صدرت عن الرسول ﷺ.

والرَّحْمة: من رحم، وتعني: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمرْحَمَةُ مِثْلُهُ، وَقَدْ رَحِمْتُهُ وتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ. وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والرَّحِمُ: «رَحِمُ المرأة، وامرأة رَحُومٌ تشتكي رحمها. ومنه استعير الرَّحِمُ للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحدة، يقال: رَحِمٌ ورُحْمٌ»[3]. قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨١]، والرَّحْمَةُ رقّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ، ودوافع الرحمة متعددة، فقد

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي: ١٠٥.
(٢) ينظر: سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، السنة ٢٥- العدد: ٦٢-٦٣، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م: ١٣٥-١٤٠.
(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٤٧.

تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، نحو: رَحِمَ الله فلانًا. والرَّحْمَةُ: الْمَغْفِرَةُ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى.. فأَما الرَّحِيمُ فإنما ذُكِرَ بَعْدَ الرَّحْمن لأَن الرَّحْمن مَقْصُورٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالرَّحِيمَ قَدْ يَكُونُ لِغَيْرِهِ؛ قَالَ الْفَارِسِيُّ: إِنما قِيلَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمن الرَّحِيمِ. فَجِيءَ بِالرَّحِيمِ بَعْدَ اسْتِغْرَاقِ الرَّحْمن مَعْنَى الرَّحْمَةِ لِتَخْصِيصِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّحْمنُ اسْمٌ مِنْ أَسماء اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَذْكُورٌ فِي الْكُتُبِ الأُوَلِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَسماء اللَّهِ؛ ويَعْنِي أَصحاب الْكُتُبِ الأُوَلِ، وَمَعْنَاهُ عِنْدَ أَهل اللُّغَةِ ذُو الرحمة الَّتِي لَا غَايَةَ بَعْدَهَا فِي الرَّحْمةِ، لأَن فَعْلان بِنَاءٌ مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ، ورَحِيمٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعلٍ[1].

والرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ من صفات الله ﷻ، ولا يطلق الرَّحْمَنُ إلّا على الله تعالى، من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له، إذ هو الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً، والرَّحِيمُ يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٨٢]، وقال في صفة النبيّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]، وقيل: إنّ الله تعالى: هو رحمن الدّنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعمّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] تنبيهًا أنها في الدّنيا عامّة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصّة بالمؤمنين[2]. إن اسم الرحمن يستغرق كُل رحمة تلازم المخلوقات كافة، من حيث الوجود والتقدير والتقويم، والعناية واللطف والإحسان، فما من مخلوق إلا والله تبارك وتعالى تفضل عليه برحمته، عندما أوجده بعد أن لم يكن، وعندما خلقه باتزان وقدر وعدل وتسوية[3].

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ١٢/ ٢٣٠-٢٣١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٧-٣٤٨.
(٣) ينظر: من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين، عمران نزال، http://almarefh. net/

ولابن القيم نظرات في اسمي الله تعالى (الرحمن والرحيم)، وما اختص بكل اسم من صفات، وذلك حين يقول: وَصِفَاتُ الْإِحْسَانِ، وَالْجُودِ وَالْبِرِّ، وَالْحَنَانِ وَالْمِنَّةِ، وَالرَّأْفَةِ وَاللُّطْفِ أَخَصُّ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ. فَالرَّحْمَنُ الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، وَالرَّحِيمُ الرَّاحِمُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] وَلَمْ يَجِئْ: رَحْمَنٌ بِعِبَادِهِ، وَلَا رَحْمَنٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، مَعَ مَا فِي اسْمِ الرَّحْمَنِ الَّذِي هُوَ عَلَى وَزْنِ فَعْلَانَ مِنْ سِعَةِ هَذَا الْوَصْفِ، وَثُبُوتِ جَمِيعِ مَعْنَاهُ الْمَوْصُوفِ بِهِ. فَبِنَاءُ فَعْلَانَ لِلسَّعَةِ وَالشُّمُولِ، وَلِهَذَا يَقْرِنُ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِهَذَا الِاسْمِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». وَفِي لَفْظٍ: «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ». وَالرَّحْمَةُ هِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأَلِيهُ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ[1].

وللرحمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة وواسعة، فلا تكاد تجد قضية تناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها، ولو أمكن استبدال اسم الدين الإسلامي بكلمة أخرى لكانت

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ٣٤-٣٦.

كلمة الرحمة هي الكلمة الأولى، ولكان اسم الدين هو دين الرحمة، وقد أثبت الله تعالى هذا المعنى في ذكره لمهمة الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة للعالمين كافة، بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧](١).

(١) ينظر: من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الأول
البعد الحجاجي لاستعمال الأدوات اللغوية في آيات الرحمة

عمدنا في تقسيم البحث إلى اعتماد تقنيات الحجاج منطلقًا في هذا التقسيم، من هنا سنرصد في المبحث الأول الأدوات اللغوية. ويندرج تحت هذه الأدوات ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللغوية والحجاج بالتبادل والوصف، وتحصيل الحاصل، ويستعمل المرسل هذه الأدوات لتركيب خطابه الحجاجي وبناء حججه، بحسب مقتضيات السياق وظروف الخطاب[1]، من هنا تعد هذه الأدوات وسائل توظف في خطاب يقصد المرسل إلى إقناع المرسل إليه بقضية ما.

التركيب الشرطي:

يبرز الشرط بوصفه تقنية حجاجية من خلال ذلك التعالق، الذي يتشكل بين جملتي الشرط والجزاء، فبواسطة هذا التعالق تتولد طاقة حجاجية تستعمل في سياقات المحاورة والجدال، التي يحرص فيها طرفا الحوار على إقناع الطرف الآخر بقوة حجته. وتعد أداة الشرط (إنْ) أمَّ هذا الباب، واستعملت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام].

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٤٧٧.

تتنوع سياقات ذكر الرحمة بتعدد الأغراض والمقاصد، فما اللغة إلا وسيلة توظف فيها المهارات الأسلوبية والمؤثرات البلاغية، لإحداث التأثير والإقناع، ومن ثَمَّ تحقيق المقاصد. ولقد استعمل البيان القرآني التركيب الشرطي في مواضع كثيرة، كالذي نشهده في هذه الآية الكريمة، فالآية تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ الَّذِي أَبْطَلَ تَحْرِيمَ مَا حَرَّمُه اليهود، ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام:١٤٣] والرحمة مستعملة في هذا السياق للإمهال، فقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] تَنْبِيهٌ لَهُمْ بِأَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ هُوَ إِمْهَالٌ دَاخِلٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ رَحْمَةً مُؤَقَّتَةً، لَعَلَّهُمْ يُسْلِمُونَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ مَعْنَى فِعْلِ: كَذَّبُوكَ الِاسْتِمْرَارَ، أَيْ: إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى التَّكْذِيبِ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَجِ[١]. واستعمال أداة الشرط (إنْ) يفيد أن هذا التكذيب محتمل الوقوع، فهي لتعليق أمر بغيره[٢]. «والتعبير بأداة الشك مشير إلى أن الحال يقتضي أن يستبعد أن يقع منهم تكذيب بعد هذا»[٣]، ولفظ (واسعة) من وسع: ومن أَسْمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الواسِعُ: هُوَ الَّذِي وَسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه ووَسِعتْ رحمتُه كُلَّ شَيْءٍ وغِناه كُلَّ فَقْر. والواسع ضد الضيِّق[٤]، وجاء لفظ (واسعة) باسم الفاعل لبيان أن هذه السعة سمتها الثبات، والذي يعزز هذا الثبات أن موقعها الإعرابي نعت لـ (رحمة) والنعت عنصر مُبَيِّن لماهية الرحمة ومدياتها لتنهض هذه الكلمة بسلطة حجاجية تكتسبها من مقتضاها المعجمي، ومن صيغتها الصرفية، ومن وظيفتها الإعرابية، فالقول: (اللّه ذو رحمة) لن يكون كافيًا لإقناع المرسل إليه، وضامنًا له بمديات هذه الرحمة، من حيث إنها تستوعب سلوك خصوم الرسول بالصبر عليهم وإمهالهم، لعلهم في نهاية المطاف يؤمنوا، من هنا كان اقتران الرحمة بأنها (واسعة) عنصر إقناع وحجة على المقصودين

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٨/١٤٤-١٤٥.
(٢) ينظر: معاني النحو، فاضل صالح السامرائي: ٤/٥٩.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي: ٧/٣١٠.
(٤) ينظر: لسان العرب: ٨/ ٣٩٢.

بالخطاب -وهم اليهود أو المشركون- وأيًّا كان المقصود من هذا الخطاب، وتضعهم في منطقة آمنة. وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه. بل حتى التهديد والوعيد هو مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه، وحجة على عدله ﷻ، وذلك حين يقول ﷻ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، لأننا نلمس من ذلك الترهيب إرادة إلهية رحيمة تقيم الحجج والبراهين على تحقق العذاب، ومن ثَمَّ رغبة تلح عليهم لإنقاذهم، مما ينتظر المكذب من أهوال، فالله ﷻ خلقنا ويعلم ميول النفس الإنسانية، وهذه النفوس جُبِلتْ على حب من يرحمها وينعم عليها واتباعه، وتميل بالفطرة إلى تحاشي ما يؤدي بها إلى مهاوي العذاب، فحق على هذه النفس أن تكون ممتنة لمن ينذرها ويرهبها، بل وحق عليها اتباعه والفوز برضاه، لأن في الإنذار دليلًا على أن الله لا يريد أن يعذبهم، بل من رحمته بهم أن أنذرهم، وأنزل عليهم كتابًا فيه تفصيل لكل شيء، وفيه كشف للغيب، لتتحصل لهم النجاة بذلك، من هنا كان إنذار الكافرين بدعوة الإسلام استدلالًا على رحمة الله ولاسيما أنهم ما زالوا في دار الأمن والسلامة، وحري بصاحب الفطرة السليمة الاقتناع والاتباع بأن يتدارك ما هو عليه من الضلالة، ومن ثَمَّ في ذلك دليل على أن من تمرد وعصى فقد عدل عن الفطرة، وانسلخ من إنسانيته، فكان حقًا عليه وصف الحق ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

والمتأمل للبنى التركيبية في القرآن يلمس حضورًا واضحًا لأسلوب الشرط والجزاء، ولعل ميزة تعليق أمر بآخر، يجعل منه آلية حجاجية، وتضع المتلقي أمام وضع يكون فيه للمرسل سلطة وأثر، إذ إن جملة الشرط تنهض بدور توجيه المتلقي إلى الجزاء، وهذا الجزاء يعود فيوجه فهمه لمحتوى الشرط، وهو ما يعني أن التأثير متبادل بين الشرط والجزاء[1].

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٤٠٤-٤٠٥.

وهو ما يعني بنية حجاجية تمتلك وسائل إقناعية بالقضية المطروحة، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

هذا تركيب لغوي آخر صيغ بأسلوب الشرط يجسد مظاهر رحمته ﷻ، فَجَعَلُ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِعْلًا لِلشَّرْطِ فِي مَقَامِ تَعْلِيقِ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، فَالتَّعْلِيقُ عَلَيْهِ تَعْلِيقُ شَرْطٍ مُحَقَّقٍ، ثُمَّ رُتِّبَ عَلَى الْجَزَاءِ مَشْرُوطٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ لِكَوْنِهِ أَيْضًا مَقْطُوعَ الرَّغْبَةِ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ، وَتَعْلِيقُ مَحَبَّةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ الْمُعَلَّقِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ يَنْتَظِمُ مِنْهُ قِيَاسٌ شَرْطِيٌّ اقْتِرَانِيٌّ، وَيَدُلُّ عَلَى الْحُبِّ الْمَزْعُومِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ فَهُوَ حُبٌّ كَاذِبٌ، لِأَنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ، وَلِأَنَّ ارْتِكَابَ مَا يَكْرَهُهُ الْمَحْبُوبُ إِغَاظَةٌ لَهُ وَتَلَبُّسٌ بِعَدُوِّهِ[1].

ولابد من الإشارة إلى أن القرآن قد استعمل الأدوات اللغوية بطريقة تفضي إلى إقناع المتلقي وإفحامه، وذلك ببيان أن محبة الله تستلزم أمورًا لابد من التقيد بها، بل والحرص على تمامها، وتمثل ذلك بالتركيب الشرطي الذي استعمل ليقوم بوظيفة حجاجية عبر التسلسل الشرطي، فمحبة الله مقدمة، مرتبطة بمقدمة أخرى، هي اتباع الرسول، والنتيجة في هذا الخطاب هي محبة الله التي تقتضي غفرانه، التي عبر عنها بالفعل المضارع (يغفر)، للتدليل على أن دوام هذه المغفرة واستمرارها، فضلًا عن أن هذا الفعل يعد من الأفعال الكلامية، التي تتحقق بمجرد النطق بالفعل، وجاء متعلقًا بالفعل (يحببكم) بالعطف، وهو الأثر الثاني الذي يترتب على اتباع الرسول، ومن ثَمَّ عقب بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاتباع الرسول ﷺ من لوازم محبة الله ومغفرته، ومن لوازم محبة الله رحمته، واستعمل القرآن التركيب الاسمي، لأنه قد يتبادر للأذهان أن هذه المحبة والمغفرة قد

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢٥-٢٢٨.

تتغير، فجاءت هذه الآية بالصياغة الاسمية دليلًا على ثبات هذه المغفرة، بل واقترانها بالرحمة، ولفظ (رحيم) يومئ إلى أن هذه الرحمة للمؤمنين خاصة، من هنا نلمح أن هذه الرحمة مرهونة أيضًا باتباع الرسول ﷺ. لذا جاء هذا التتابع اللغوي وعبر تلازم بعضه ببعض، ليولد بنية حجاجية لكل من يدعي محبة الله، واضعًا له المنهج الرباني مسالك الظفر بهذه المحبة.

وسياق الآية يشير إلى أن المخاطبين لا بد قد ادعوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسول الله ﷺ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئًا، واتباع التكليف شيئًا آخر، والله ﷻ له على خلقه إيجاد، وإمداد، وتلك نعمة، ولله على خلقه فضل التكليف، والحق ﷻ لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد. وهو ﷻ عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان رحمة به، ولو لم يعطنا نظام حركة الحياة في «افعل» و «لا تفعل» لفسد علينا الإيجاد والإمداد. فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضًا من ناحية قبول التكليف، وأن يحب العبد ربه، لأنه كلف بالتكاليف الإيمانية، وأن يتحسس الحكمة والمنفعة من وراء التكليف، حتى وإن خالفت ميوله، من هنا حري بالإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها، طاعة منه وحبًّا لله، ليتلقى محبة الله له بآثارها، من عفو، ورحمة، ورضا[1].

والمحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن كل ما يراه كمالًا من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وعبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة[2].

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: ٣/١٤١٧-١٤١٨-١٤١٩.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٢/ ١٣.

وقد يأتي الشرط في القرآن الكريم في سياق حجاجي، يكشف للإنسان عن حقيقة جبلته البشرية، عندما يكون الأمر مناطه الإنفاق والعطاء، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء].

تشير الآية الكريمة إلى مدلول آخر لرحمة الله بخلقه، الذي يتوزع بدوره على جانبين الأول: مدلول عام على صلة بمشيئة الله في إدارة شؤون الكون، التي تفضي إلى جعل كل أمر الرزق والمقدورات التي منعها الناس، لأن الخزن ضرب من المنع، وقيل: جوده الواسع وقدرته [1]. فمشيئة الله اقتضت أن يكون متحكمًا بأرزاق الخلق، وهذه رحمة منه بخلقه، والجانب الآخر متعلق بمنطوق الآية الكريمة، حيث اقترنت الخزائن بالرحمة اقتران إضافة، للتدليل على أن الرزق والنعم والمقدورات مقيدة بالرحمة، وهذا التقييد يورث طمأنينة وأمَنَة، إذ يكون حجة على أنه دائم غير منقطع، ولتتولد المقارنة فيما لو كانت خزائن الرزق بيد الله أو بيد الإنسان، وهنا تتصدى الأدوات اللغوية لتسوق المتلقي إلى الاقتناع والتسليم بأن من قرن عطاءه بالرحمة أحق أن يتبع من الذي حظه إن ملك الرزق المنع والبخل، وهو إفحام لخصوم النبي في عدم قدرتهم على البذل والعطاء.

وتصدرت جملة الشرط بالأداة «لَوْ» التي جاءت متسقة مع القضية المطروحة لاستحالة تحققها، والتي «تُفيدُ انْتِفَاءَ الشَّيْءِ لانْتِفَاءِ غَيْرِه»[2]، وَشَأْنُ (لَوْ) أَنْ يَلِيَهَا الْفِعْلُ مَاضِيًا فِي الْأَكْثَرِ أَوْ مُضَارِعًا فِي اعْتِبَارَاتٍ، فَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالدُّخُولِ عَلَى الْأَفْعَالِ، فَإِذَا وَقَعَ الِاسْمُ بَعْدَهَا فِي الْكَلَامِ وَأُخِّرَ الْفِعْلُ عَنْهَا فَإِنَّمَا يَفْعَلُ الْعَرَبُ ذَلِكَ لِقَصْدٍ بَلِيغٍ: إِمَّا لِقَصْدِ التَّقَوِّي وَالتَّأْكِيدِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ ذِكْرَ الْفِعْلِ بَعْدَ الْأَدَاةِ ثُمَّ ذِكْرَ فَاعِلِهِ ثُمَّ ذِكْرَ الْفِعْلِ مَرَّةً ثَانِيَةً

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٣٥. وينظر: فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني: ٣/٣١١.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: ٢١/٤١٣.

تَأْكِيدٌ وَتَقْوِيَةٌ، وَإِمَّا لِلانْتِقَالِ مِنَ التَّقَوِّيَةِ إِلَى الاخْتِصَاصِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَا قُدِّمَ الْفَاعِلُ مِنْ مَكَانَهُ إِلَّا لمقصد طَرِيقٍ غَيْرِ مَطْرُوقٍ[1]. وَ«(إِذَا) دَالَّةٌ عَلَى الْجَوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى الْجَوَابِ، الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّامُ الْمُقْتَرِنَةُ بِجَوَابِ (لَوْ)، الامْتِنَاعِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَى امْتِنَاعِ حُصُولِ جَوَابِهَا، لِأَجْلِ امْتِنَاعِ وُقُوعِ شَرْطِهَا، وَزَائِدَةٌ بِأَنَّهَا تُفِيدُ أَنَّ الْجَوَابَ جَزَاءٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمُجَابِ»[2]. فَالْمَقْصُودُ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى شدة الشح الذي اختصت به أنفسهم.

لقد تضمنت الآية الكريمة أكثر من تقنية حجاجية، فإلى جانب أسلوب الشرط يبرز المفعول لأجله (خشية الإنفاق)عنصرًا لغويًّا حجاجيًّا، فهو من أدوات التعليل التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، ودليلًا آخر على شح المخاطبين وبخلهم، وذلك لبيان علة الإمساك، إذ «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشى منه»[3]. فالمقتضى المعجمي لهذه اللفظة يضع الإنسان أمام حقيقة نفسه التي تستعظم الإنفاق خوفًا، لذلك يسلك السلوك الذي يتماشى مع هذا الشعور، وهو البخل والإمساك.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ فجاءت هذه الجملة (جملة التذييل) متضمنة معنى الجملة السابقة لها ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ (الجملة الأصلية) على نحو يبدو معه مضمون الجملة الأولى قد تكرر مرتين: مرة بالمطابقة ومرة بالتضمن، ذلك أن جملة التذييل تفهمنا معنى الجملة الأصلية، فهي تتضمنه وتزيد عليه، مع ما فيها من تعميم وشمول، اللذين عبرت عنهما طرائق أسلوبية مختلفة احتوتها جملة التذييل. ومن هذه الطرائق ما هو صرفي يتعلق بصيغة بعض الكلمات الواردة في التذييل

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٥/ ١١١.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٥٥.

مثل صيغة المبالغة المفيدة تكثيرًا ومبالغة وزيادة[1]، على نحو ما نجده في الآية ﴿قَتُورًا﴾ على وزن فعول، وهي صيغة مبالغة أكدت مع الجملة الواردة فيها مضمون السابقة، فخشية الإنفاق جزء من القتر، ويعني تقليل النفقة، وهو بإزاء الإسراف، والآية تنبيه على ما جبل عليه الإنسان من البخل[2].

الاستفهام:

للاستفهام من الناحية الحجاجية أهمية تبرز انطلاقًا من طبيعة بنية الاستفهام اللغوية ووظائفه الدلالية، إذ لما كان الكلام إثارة السؤال أو استدعاء له فإنه يولد نقاشًا، ومن ثَمَّ حجاجًا، فإذا بالكلام والحجاج متصلان على نحو عميق، وإذا بالحجاج ماثل في كل نوع من أنواع الخطاب. على هذا النحو ندرك خطورة طرح الأسئلة، إنها وسيلة من وسائل الإثارة، ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشكل مطروح، على أن طاقة الاستفهام الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على الصريح، وهي التي تجعل من الاستفهام أسلوبًا حجاجيًّا[3]. والقرآن الكريم استعمل الاستفهام بأنواعه الحقيقية والمجازية، وذلك بحسب مقتضيات السياق، فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك:٢٨-٢٩].

يطالعنا موقف حجاجي آخر، كان للفعل (قُلْ) دور بارز في سوق الحجج والبراهين، عبر تتابع حواري قصد من ورائه الرد على مشركي مكة، الذين كانُوا يَتَمَنَّوْنَ مَوْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ[4]. فكان جواب الرسول ﷺ بصيغة تساؤلات:

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٧٤-٣٧٦.
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٩٣-٣٩٤.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٢١/١٨.
(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي: ١٤١-١٤٢.

فَالْاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إِنْكَارِيٌّ، أَنْكَرَ انْدِفَاعَهُمْ إِلَى أُمْنِيَاتٍ وَرَغَائِبَ لَا يَجْتَنُونَ مِنْهَا نَفْعًا وَلَكِنَّهَا مِمَّا تُمْلِيهِ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ الْخَبِيثَةُ مِنَ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ. وَالْاسْتِفْهَامُ بِقَوْلِهِ: (فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ) إِلَخْ إِنْكَارِيٌّ. وَالْاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: (فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ) اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ[1].

يرصد القارئ لهذه الآية الكريمة تتابعًا نسقيًّا لأسلوب الاستفهام، وتكرارًا لفعل الأمر (قُلْ)، والاستفهام في الآية هو حجج بذاته، عبر ما يثير في المتلقي من تساؤلات، لا تحتاج إلى إجابة أحيانًا، وإنما تحتاج إلى إعمال الفكر في المستفهم عنه، فالاستفهام هنا هو فعل حجاجي بالقصد المضمر فيه، ولاسيما بهذا الترتيب الوارد في الآيات، الذي يؤدي بالمرسل إليه إلى التسليم المرة بعد الأخرى للتنازل عن معتقداته شيئًا فشيئًا، والمرسل يدرك كما يدرك المرسل إليه أن هذه الأسئلة ليست استفهامًا عن مجهول، ولهذا فهي حجج باعتبار قصد المرسل لا باعتبار الصياغة، والمعنى الحرفي فقط[2]، من هنا جاءت في سياق الإنكار.

وَمُقَابَلَةُ (أَهْلَكَنِيَ) (بِرَحِمَنَا) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ: أَوْ رَحِمَنَا بِالْحَيَاةِ، فَيُفِيدُ أَنَّ الْحَيَاةَ رَحْمَةٌ، وَأَنَّ تَأْخِيرَ الْأَجَلِ مِنَ النِّعَمِ، وَإِنَّمَا لَمْ يُؤَخِّرِ اللَّهُ أَجَلَ نَبِيئِهِ ﷺ مَعَ أَنَّهُ أَشْرَفُ الرُّسُلِ لِحِكَمٍ أَرَادَهَا. وَإِنَّمَا سَمَّى الْحَيَاةَ رَحْمَةً لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ، لِأَنَّ فِي حَيَاتِهِ نِعْمَةً لَهُ وَلِلنَّاسِ، مَا دَامَ اللَّهُ مُقَدِّرًا حَيَاتَهُ، وَحَيَاةُ الْمُؤْمِنِ رَحْمَةٌ لِأَنَّهُ تَكْثُرُ لَهُ فِيهَا بَرَكَةُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ[3].

وَجَاءَ هَذَا الْأَمْرُ بِقَوْلٍ يَقُولُهُ لَهُمْ بِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ: (أَوْ رَحِمَنَا) فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ سَوَّى بَيْنَ فَرْضِ إِهْلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَإِحْيَائِهِمْ فِي أَنَّ أَيَّ الْحَالَيْنِ فُرِضَ لَا يُجِيرُهُمْ مَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ، أَعْقَبَهُ بِحُجَّةٍ بَالِغَةٍ أَنَّ عَلَامَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.
(٢) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٤٨٥.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.

ثَمَّ نجاتهم تتمثل بالإسلام والإيمان بالرحمن، بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ آمَنُوا بِالرَّحْمَنِ، فَهُمْ مَظِنَّةُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِمْ هَذِهِ الصِّفَةُ، فَيَرْحَمَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[1].

إن القرآن وهو يستعمل أسماء الله الحسنى يفيد من البعد الحجاجي لهذه الأسماء، ويتمثل في العلاقة التي تقيمها مقتضيات هذه الأسماء بين المتكلم، وهو الذات الإلهية المتصفة بهذه الأسماء والصفات وبين مُتلقي القرآن الكريم. إن هذه الأسماء إذ تكشف عن قوة المتكلم (الذات الإلهية) بواسطة السمات الدلالية المنطوقة، وتكشف بواسطة سماتها الدلالية المقتضاة عن ضعف المتلقي، بحيث يبدو البون شاسعًا جدًّا في عملية التخاطب بين المتكلم والمخاطب؛ إنّ هذا الوضع في التخاطب يجعل المتلقي واقعًا تحت سلطة الخطاب القرآني[2]، عبر الوسائل الحجاجية التي ترغمه على الاقتناع والتسليم، ولاسيما عندما يضع بين يديه النتيجة والأثر، الذي يترتب على تبنيه طرحًا يخالف به التوجيه الإلهي، ليس عن اقتناع بهذا الطرح وإنما كبر وتعنت، لذا يأتي التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ والاستفهام هنا أفاد التهديد والوعيد، فأثر الكفر لا محالة واقع بالحرمان من رحمة (الرحمن)، وعلة الحرمان الضلال المبين، وهذا يقتضي عمى بصيرتهم عن استشعار ضلالتهم، وهنا تقام عليهم الحجة، فَيَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَيَّ الْفَرِيقَيْنِ فِي ضَلَالٍ، حِينَ يَرَوْنَ أَثَرَ الرَّحْمَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَانْتِفَاءَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، وَخَاصَّةً فِي الْآخِرَةِ. وَأَصْلُ الْغَوْرِ: ذَهَابُ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ، مَصْدَرُ غَارَ الْمَاءُ إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَالْإِخْبَارُ بِهِ عَنِ الْمَاءِ مِنْ بَابِ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، مِثْلَ: عَدْلٍ وَرِضًى. وَالْمَعِينُ: الظَّاهِرُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْبِئْرُ الْمَعِينَةُ: الْقَرِيبَةُ الْمَاءِ على وَجه التَّشَبُّه[3].

وهذا من عظيم رحمته بعباده المؤمن والكافر، وهو بذل الماء وتسهيل مهمة

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩/٥٢-٥٦.
(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ١١٤.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.

الحصول عليه، ويعرف الإنسان حق المعرفة جسامة فقدان الذي فيه قوام حياته، فعندها ستشرئب الأعناق إلى السماء طلبًا لغوث الله.

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، وذلك لتقوية حجة المتكلم، وهدم قضية الخصم ومعتقده، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام:١٢].

تأتي الآية في سياق طغى عليه نمط الأمر المتمثل بالفعل (قُلْ)، وجُمْلَةُ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تَكْرِيرٌ فِي مَقَامِ الاسْتِدْلَالِ، فَإِنَّ هَذَا الاسْتِدْلَالَ تَضَمَّنَ اسْتِفْهَامًا تَقْرِيرِيًّا، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ تَصْدِيرُ هَذَا الْكَلَامِ بِالْأَمْرِ بِأَنْ يَقُولَهُ ﷺ مَقْصُودًا بِهِ الِاهْتِمَامُ بِمَا بَعْدَ فِعْلِ الْأَمْرِ بِالْقَوْلِ، وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي التَّقْرِيرِ. وَالتَّقْرِيرُ هُنَا مُرَادٌ بِهِ لَازِمُ مَعْنَاهُ، وَهُوَ تَبْكِيتُ الْمُشْرِكِينَ وَإِلْجَاؤُهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمَا يُفْضِي إِلَى إِبْطَالِ مُعْتَقَدِهِمُ الشِّرْكَ، فَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الْكِنَائِيِّ مَعَ مَعْنَاهُ الصَّرِيحِ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ الْمَعْنَى الْكِنَائِيُّ. ويعد الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجًا، لكونه مُرَادًا بِهِ الْإِلْجَاءُ إِلَى الْإِقْرَارِ، وكَانَ الْجَوَابُ عَنْهُ بِمَا يُرِيدُهُ السَّائِلُ مِنْ إِقْرَارِ الْمَسْؤُولِ مُحَقَّقًا لَا مَحِيصَ عَنْهُ، إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْجَحْدِ فِيهِ أَوِ الْمُغَالَطَةِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَنْتَظِرِ السَّائِلُ جَوَابَهُمْ وَبَادَرَهُمُ الْجَوَابَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: (لله) تَبْكِيتًا لَهُمْ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِبْلَاغِ الْحُجَّةِ مُقَدَّرَةً فِيهِ مُحَاوَرَةٌ، وَلَيْسَ هُوَ مُحَاوَرَةً حَقِيقِيَّةً[1].

وفي هذا السياق المشحون بإثبات ضلالة الكفار وإثبات أن ملك كل شيء عائد إلى الله وحده، يأتي قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾، وَهِيَ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَهِيَ مِنَ الْمَقُولِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنْ يَقُولَهُ. ولابد من الوقوف عند هذه الجملة، من حيث إنها أعقبت قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٥٠.

وتتجلى مزية هذا الاعتراض، لأن مع عظمة خلقه واستغنائه عنهم جاءت هذه الجملة، لتقرر مفهوم أن رحمة الله عهد والتزام، فدلالة هذه الجملة المعترضة تتسق مع دلالة سابقتها، من حيث إنه قد يخطر خاطر في النفس الإنسانية أنه قد يلتبس بهذا الملك ظلم وجور، كالذي نعهده عند ملوك البشر، وتبرزُ هنا ميزة توظيف الفعل (كَتَبَ) وهو في اللغة: ضَمُّ الشَيءِ إلى الشَيء، نحو ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كَتَبْتُ السّقاء[1]، ومن المجاز قولنا: «كتب عليه كذا: قضي عليه. وكتب الله الأجل والرزق، وكتب على عباده الطاعة وعلى نفسه الرحمة»[2]، ويقال: الإرادة مبدأ، والكِتَابَةُ منتهى. ولقد تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ، بِأَنْ جَعَلَ رَحْمَتَهُ الْمَوْصُوفَ بِهَا بِالذَّاتِ مُتَعَلِّقَةً تَعَلُّقًا عَامًّا مُطَّرِدًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَزْمَانِ وَالْجِهَاتِ. فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُطَّرِدًا شُبِّهَتْ إِرَادَتُهُ بِالْإِلْزَامِ، فَاسْتُعِيرَ لَهَا فِعْلُ (كَتَبَ)، الَّذِي هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْإِيجَابِ، «فَخُوطِبَ الْعِبَادُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنَّهُ مَنْ كَتَبَ شَيْئًا فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ»[3]. فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا تَأْكِيدَ وَعْدٍ أَوْ عَهْدٍ كَتَبُوهُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَخَلَّفُ كَالْأَمْرِ الْوَاجِبِ الْمَكْتُوبِ. وَالرَّحْمَةُ هُنَا مَصْدَرٌ، أَيْ: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الصِّفَةَ، أَيْ: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الِاتِّصَافَ بِالرَّحْمَةِ، أَيْ: بِكَوْنِهِ رَحِيمًا، وَفِي الْمَقْصُودِ مِنْ شُمُولِ الرَّحْمَةِ لِلْعَبِيدِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ حَقِّ شُكْرِهِ، وَالْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي مُلْكِهِ غَيْرَهُ. فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ لَا ينعم، ولا بأن يَعِدَ بِالْإِنْعَامِ، بَلْ أَبَدًا يُنْعِمُ، وَأَبَدًا يَعِدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ ذَلِكَ، وَأَوْجَبَهُ إِيجَابَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ[4]. وَمِنْ مَعَانِي هَذَا الِاعْتِرَاضِ، أَنَّ فِيهِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّى أُمَّةَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مِنْ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ،

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٦٩٩.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري: ٢/ ١٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٤٣٥.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٨٩.

الَّذي عَذَّبَ به الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلُ، وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ النَّبِيءِ مُحَمَّد ﷺ إِذْ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فِي سَائِرِ أَحْوَالِه بِحُكْمِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وَإِذْ أَرَادَ تَكْثِيرَ تَابِعِيه فَلِذَلِكَ لَمْ يَقْضِ عَلَى مُكَذِّبِيه قَضَاءً عَاجِلًا، بَلْ أَمْهَلَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، لِيَخْرُجَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِه، كَمَا رَجَا رَسُولُ اللَّه ﷺ. وَقَدْ حَصَلَ مَا رَجَاهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا، وَأَيَّدَ اللَّهُ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ دِينَهُ وَرَسُولَهُ، وَنَشَرُوا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ.

وقد ورد هذا الوعد بالرحمة في سياق آخر، اختص هذه المرة بالمؤمنين، وإن لم يكن بأسلوب الاستفهام، بل بأسلوب خبري، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام:٥٤].

فَعِنْدَهَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾،والقصد منه إِمَّا أَنْ يَكُونَ أُمِرَ بِتَبْلِيغِ سَلَامِ اللَّه إِلَيْهِمْ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أُمِرَ بِأَنْ يَبْدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ، إِكْرَامًا لَهُمْ وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ، وقيل: مَعْنَى السَّلَامِ هُنَا الدُّعَاءُ بالسلامة مِنَ الْآفَاتِ، السَّلَامُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى، فَيَكُونُ هَذَا التَّسْلِيمُ بِشَارَةً بِحُصُولِ الْكَرَامَةِ، عَقِيبَ تِلْكَ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ بَحْرِ عَالَمِ الظُّلُمَاتِ[1]. وهو التكريم -بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب، والرحمة في الجزاء، حتى ليجعل اللّه سبحانه وتعالى الرحمة كتابًا على نفسه للذين آمنوا بآياته، ويأمر رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه. واسند الفعل (كتب) إلى الفاعل (ربكم)، فصفات «الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القدرة، وتدبير أمر الخليقة»[2]

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٤/٥٢٧.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم: ٢٧.

أخص بالربوبية، وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله، متى تابوا من بعده وأصلحوا- إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب، فما يذنب الإنسان إلا عن جهالة، وعلى ذلك يكون النص شاملًا لكل سوء يعمله صاحبه متى تاب من بعده وأصلح. ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب -أيًّا كان- والإصلاح بعده، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة[1].

(١) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢/ ١١٠١.

المبحث الثاني
البعد الحجاجي لاستعمال العلاقات شبه المنطقية (السلم الحجاجي) في آيات الرحمة

يعرف السلم الحجاجي بأنه: مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية قوامها الشرطين التاليين[1]:

أ. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم الحجاجي يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب. كل قول كان في السلم دليلًا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى عليه.

ويعتمد السلم الحجاجي على الوصف الدلالي للملفوظ، ويستند أوزوفالد ديكرو في الوصف الدلالي للملفوظ على أفعال الاقتضاء بالدرجة الأولى، ذلك لأن الاستعمال التداولي للغة غالبًا ما يلجأ إلى الإشارات والتلميحات في التعبير بعبارات غير التي وضعت له في الأصل اللغوي، وفعل الاقتضاء هو الذي يقدم لنا وصفًا دلاليًّا تداوليًّا للملفوظات. فالحجاج يدل على صنف خاص من العلاقات المتضمنة في الخطاب والمدرجة في اللغة، ضمن المحتويات الدلالية. والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن

(١) ينظر: اللسان والميزان العقلي أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن: ٢٧٠.

تكون تدرجية أو قابلة للقياس بالدرجات، أي: أن تكون واصلة بين سلالم، حيث يؤمن ديكرو بفكرة وجود قوة حجاجية لكل الملفوظات، أمّا ترتيبها الحجاجي فمرتبط بملفوظ ما يسميه «موجّه القوة»؛ لذلك وضع أنموذج السلم الحجاجي[1]. ويتحقق الحجاج بالسلم الحجاجي باستعمال أدوات لغوية، وآليات شبه منطقية، يمكن تلخيصها التالي:

- الأدوات اللغوية، كالروابط الحجاجية (بل، لكن، حتى، ليس كذا فحسب، فضلًا عن...) السمات الدلالية، أدوات التوكيد.
- الصيغ الصرفية (أفعل التفضيل، صيغ المبالغة).
- (المفهوم: الموافقة، المخالفة).
- حجة الدليل.

على هذا النحو تتشكل عناصر السلم الحجاجي، إذ تبرز في أي سياق بوصفها عنصرًا أساسيًّا يوجه الخطاب وجهة تصب في تحقيق مقاصد المرسل، من جهة، وتحقيق الاقتناع لدن المرسل إليه من جهة أخرى. وسنقف عند أحد هذه العناصر، وتتمثل بالأداة (إنما) لنشهد وقعها الحجاجي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف].

هذه آية أخرى تقرر لمفهوم الرحمة، ردًّا على المشركين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ وحكي عن الفراء أنه قال: العرب تقول: اجتبيت الكلام، واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من قبل نفسك. والثاني: هلَّا طلبتها لنا قبل مسألتك؟ والأول أصح[2]. والله أعلم.

(١) ينظر: الحجاج في اللسانيات التداولية.. دراسة لنماذج من القرآن الكريم، ابن أحمد عالم فايزة، http://kalema. net/

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي: ٢/ ١٨٢.

والرد جاء مصدّرًا بفعل الأمر (قُلْ) تحقيقًا لما سيأتي بعده من كلام، لأن الرسول سيجعل من هذا الفعل عملًا منجزًا على أرض الواقع، ومن ثم قوة حجاجية تنقض على افتراءات المشركين، وستنسحب الحال على الفعل (أتبع). والعنصر الحجاجي الآخر هو أداة القصر (إنما)، التي "تفيد إثباتًا لما بعدها ونفيًا لما سواه"، فصنف هذا الخطاب أن ما يتبعه في أعلى درجات السلم الحجاجي، وكل ما عداه خارج هذا الترتيب السلمي، إذ كل ما يتبعه الرسول ﷺ هو من الله وليس اختلاقًا، وكل ما دون ذلك مما يتبعه المشركون هو إفك وبدع والذي يدعم هذا كله التفصيل الذي يلي هذا الكلام في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، إذ جاء هذا التفصيل ليرفع من سقف الأدلة والبراهين في كون ما يتبعه الرسول ليس باختلاق، لأنه بصائر «أَيْ: هَذَا الْمُوحَى إِلَيَّ الَّذِي أَنَا أَتَّبِعُهُ لَا أَبْتَدِعُهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ بَصائِرُ، أَيْ: حُجَجٌ وَبَيِّنَاتٌ يُبْصَرُ بِهَا، وَتَتَّضِحُ الْأَشْيَاءُ الْخَفِيَّاتُ، وَهِيَ جَمْعُ بَصِيرة، وهو هُدىً وَرَحْمَةٌ لقَوْم يُؤْمِنُونَ، أَيْ: دَلَالَةٌ إِلَى الرُّشْدِ، وَرَحْمَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، وَفِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَبْصِرُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْوَحْيِ، يَتَّبِعُونَ مَا أَمَرَ به فيه، وَيَجْتَنِبُونَ مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ فيه، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا تَضَمَّنَهُ، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِيُّ: أَصْلُ الْبَصِيرَةِ الْإِبْصَارُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ سَبَبًا لِبَصَائِرِ الْعُقُولِ فِي دَلَالَةِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْبَصِيرَةِ، تَسْمِيَةً لِلسَّبَبِ بِاسْمِ الْمُسَبَّبِ[1].

ويمكن تصنيف الحجج الواردة في الآية على النحو التالي:

الذي يتبعه الرسول ﷺ:

- الذي اتبعه من ربي هو الحق.
- الذي أتبعه بصائر.

(١) ينظر: البحر المحيط: ٥/ ٢٦١.

- الذي أتبعه هدى.
- الذي أتبعه رحمة.
- كل ما دون ذلك مما يتبعه المشركون هو إفك، إذن هو باطل.

ووصف القرآن بكونه هدى ورحمة في هذا السياق عائد إلى أن استشعار كون القرآن هدى ورحمة لا يكون من أي بشر، ولذلك قيد هذا الوصف بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ولفظ الرحمة هنا يستمد دلالته من القرآن نفسه بكل ما جاء به من أحكام وقصص وترغيب وترهيب بمخاطبته للنفس البشرية، وهو شفاء للنفس السقيمة، التي حط بها الكفر والضلالة في الدرك الأسفل من مستويات النفس الإنسانية، وعندما يوصف القرآن بكونه (بصائر) فهو رحمة، وعندما يوصف بكونه (هدى) فهو رحمة، من هنا لا بد من أن يتقرر ويترسخ في روع المخاطب أن كل ما يُوحى إلى الرسول ﷺ ويتبعه -وهو القرآن- هو رحمة بحججه وبراهينه وهَدْيِه.

إن الرحيم وبالمفهوم الذي تحمله هذه الصفة لن يشرّع حكمًا، أو يمنح رزقًا، أو يوحي وحيًا، إلا وتحفه رحمة فيها مصلحة للعباد وسعادة لهم في الدارين، من هنا كان الاحتجاج يمحو ما دونها من أسباب السعادة الفانية، التي يعتدُّ بها الكافرون، وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

هذا مقام آخر يوصف القرآن فيه بكونه رحمة، ويَتَفَرَّعُ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، تَنْبِيهُهُمْ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِهِمَا، وَأَنْ يقدروا قدر نعمتها، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهَا نِعْمَةٌ تَفُوقُ نِعْمَةَ الْمَالِ، الَّتِي حُرِمَ مِنْهَا أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُنِحَهَا أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ، فَكَانَتِ الْجُمْلَةُ حَقِيقَةً بِأَنْ تُفْتَتَحَ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ. وَجِيءَ بِالْأَمْرِ

بِالْقَوْلِ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعَةِ وَالْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعِ عَلَيْهَا تَنْوِيهًا بِالْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعَةِ، بِحَيْثُ يُؤْمَرُ الرَّسُولُ ﷺ أَمْرًا خَاصًّا بِأَنْ يَقُولَهَا، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ مَا يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ مَأْمُورًا بِأَنْ يَقُولَهُ[1]، بيد أنه هناك مواضع كهذه الآية وغيرها كثير في القرآن جاء الخطاب فيها مبدوءًا بالفعل (قُلْ)، ولا يخفى ما في الصيغة الأمرية من التنبيه.

يبرز في هذه الآية الكريمة ضرب من المقارنة بين ما عند الله ﷻ وما عند المشركين بين فضل الله ورحمته، وما يجمع المشركون من أموال وما لهم من أولاد، ولا شك أن الأخير هو مظهر من مظاهر الفرح والبهجة للنفس الإنسانية، لأنها جبلت على حبه، ناهيك عن التباهي والتفاخر، بيد أن البيان القرآني يضع من قيمة كل هذه المظاهر المبهجة، عندما يقابلها بفضل الله ورحمته، محاججًا المشركين عبر منظومة لغوية صيغت بأسلوب، يجعل من فضل الله ورحمته مصدرًا للفرح، «فَالْفَاءُ فِي قَوْلِه: (فَلْيَفْرَحُوا) فَاءُ التَّفْرِيعِ، و(بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ) مَجْرُورٌ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ (فَلْيَفْرَحُوا) قُدِّمَ عَلَى مُتَعَلَّقِهِ لِلاهْتِمَامِ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِإِفَادَةِ الْقَصْرِ، أَيْ: (بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) دُونَ مَا سِوَاهُ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)، فَهُوَ قَصْرُ قَلْبٍ تَعْرِيضِيٌّ بِالرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ ابْتَهَجُوا بِعَرَضِ الْمَالِ فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا»[2] من هنا يظهر ما للقصر من قوة حجاجية تُقْصي كل ما دونه، وعزز هذا التوجه استعمال افعل التفضيل (خير) لتحيل كل سبب لفرح المشركين هباء لا قيمة له. وَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِه: (فَبِذَلِكَ) لِلْمَذْكُورِ، وَهُوَ مَجْمُوعُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَاخْتِيرَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْهُ اسْمُ الْإِشَارَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنْوِيهِ وَالتَّعْظِيمِ مَعَ زِيَادَةِ التَّمْيِيزِ وَالِاخْتِصَارِ. وَلَمَّا قَصَدَ تَوْكِيدَ الْجُمْلَةِ كُلِّهَا بِمَا فِيهَا مِنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ قَرَنَ اسْمَ الْإِشَارَةِ بِالْفَاءِ تَأْكِيدًا لِفَاءِ التَّفْرِيعِ الَّتِي فِي

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤
(٢) المصدر نفسه: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤

(فَلْيَفْرَحُوا) لِأَنَّهُ لَمَّا قُدِّمَ عَلَى مُتَعَلَّقِه قُرِنَ بِالْفَاءِ لِإِظْهَارِ التَّفْرِيعِ فِي ابْتِدَاءِ الْجُمْلَةِ، وَقَدْ حُذِفَ فِعْلُ (لِيَفْرَحُوا) فَصَارَ مُفِيدًا مُفَادَ جُمْلَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ مَعَ إِيجَازٍ بَدِيعٍ. وَتَقْدِيرُ مَعْنَى الْكَلَامِ: قُلْ فَلْيَفْرَحُوا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ، لَا سِوَاهُمَا، فَلْيَفْرَحُوا بِذَلِكَ لَا سِوَاهُ. وَالْفَرَحُ: شِدَّةُ السُّرُورِ[1].

وجاء قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ليلخص حال المشركين، ويتضح من ذلك مدى التعالق بين هذه الجملة والجملة التي تسبقها تعالقًا، يؤدي وظيفة الإقناع وبسط الحجة وإقامتها على المتلقين من الخصوم، وذلك عبر التصريح بالمفهوم من الجملة السابقة وتعيينه وإقصاء مفاهيم أخرى من شأنها: أن تجعل ما يجمعون مصدرًا للفرح إلى جانب فضل الله ورحمته، فهذه الجملة سدت سبل كون ما عندهم سبب من أسباب فضل الله ورحمته.

إن البيان القرآني حين خاطب الناس، إنما هو يخاطبهم بما ألفوا وعهدوا، فلا يختلف اثنان على أن شفاء الصدر هو خلوه من كل عاهة نفسية، التي بدورها تورث راحة النفس وطمأنينتها، وهذا مطمح كل إنسان، ولقد عزز اختيار العناصر اللغوية الجانب الحجاجي في الخطاب، ليتولد الإقناع والتأثير.

وكثيرة هي الأوامر والنواهي التي جاء بها القرآن، وهي في مجملها يُراد من ورائها مصلحة العباد وسعادتهم في الدارين، ومن ثمراتها أيضًا راحة النفس وطمأنينتها، وخلق الله الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وما يثقلها وما يشق عليها، وبالمقابل فرض عليها ما فيه خيرها وسعادتها، ومن حكمته ﷻ أن جعل من هذه الطاعات بعد عبادته وتوحيده، على نحو ما نشهده في أدب معاملة الوالدين، وذلك في سياق قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤

جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

تعد هذه الآية الكريمة مظهرًا من مظاهر الرحمة بالإنسان، التي اقتضتها الحكمة الإلهية، وهي من آثار رحمة الله بالإنسان، وهو في أشد أحوال ضعفه، وهي استدلال على حرص الإسلام على أن يكون مبدأ التراحم ركنًا في النواة الأولى لتأسيس المجتمع وهي الأسرة، من هنا جاء هذا الاقتران بين عبادة الله وبر الوالدين. ولقد عمد البيان القرآني إلى مد هذه القضية بأدوات لغوية، تلح على منزلة البر وتفصل أحوال الوالدين، وتضع له أسس التعامل وكيفيتها، فكان أن استهلت الآية الكريمة بالفعل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بكل ما في هذا الفعل من قوة إنجازية، تحيل إلى أن الأمر مقطوع فيه وفي إنجازه، لتتولد بذلك طاقة حجاجية ترغم المتلقي على الخضوع والتسليم بهذا القضاء، ولاسيما إذا علمنا أن المقتضى المعجمي لكلمة الْقَضَاءِ هُوَ الْحُكْمُ الْجَزْمُ الْبَتُّ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَلَفْظُ الْقَضَاءِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ يَرْجِعُ إِلَى إِتْمَامِ الشَّيْءِ وَانْقِطَاعِهِ، ومن هذا المقتضى يتضح البعد الحجاجي والتداولي لهذه الكلمة ووقعها المعنوي، إذ نشهد الحزم والجزم الذي يمنح الكلام سلطة لا يملك معها المتلقي إلا الامتثال، أما الْمُقضَى به فهو أَمَرَ بِعِبَادَتِه اللَّه تَعَالَى، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ،[1] وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّاعَةَ مِنْ أَصُولِ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُفِيدُ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ. وَأَنَّهُ تَعَالَى بَدَأَ بِذِكْرِ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَثَنَّى بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَثَلَّثَ بِالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَهَذِهِ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ وَمُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَعْظِيمِ هَذِهِ الطَّاعَةِ. وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ: وَإِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ، بَلْ قَالَ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ فَتَقْدِيمُ ذِكْرِهِمَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الِاهْتِمَامِ. وَقَالَ: إِحْسَانًا بِلَفْظِ التَّنْكِيرِ، وَالتَّنْكِيرُ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، وَالْمَعْنَى: وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا عَظِيمًا كَامِلًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ إِحْسَانُهُمَا إِلَيْكَ قَدْ بَلَغَ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٠/٣٢٣.

الْغَايَةَ الْعَظِيمَةَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ إِحْسَانُكَ إِلَيْهِمَا كَذَلِكَ[1].

وَانْتَصَبَ إِحْسَانًا عَلَى المفعولية الْمُطلقَة مصدر نَائِبًا عَنْ فِعْله. وَالتَّقْدِيرُ: وَأَحْسِنُوا إِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا يَقْتَضِيه الْعَطْفُ عَلَى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أَيْ: وَقَضَى إِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ. وَعَطْفُ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عَلَى مَا هُوَ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ،، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ فَاسْتَحَقَّ الْعِبَادَةَ، لِأَنَّهُ أَوْجَدَ النَّاسَ. وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْأَبَوَيْنِ مَظْهَرَ إِيجَادِ النَّاسِ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَالْخَالِقُ مُسْتَحِقُّ الْعِبَادَةِ لِغِنَاهُ عَنِ الْإِحْسَانِ، وَلِأَنَّهَا أَعْظَمُ الشُّكْرِ عَلَى أَعْظَمِ مِنَّةٍ، وَسَبَبُ الْوُجُودِ دُونَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْإِحْسَانَ لَا الْعِبَادَةَ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِحْسَانِ دُونَ الْعِبَادَةِ، وَشَمِلَ الْإِحْسَانُ كُلَّ مَا يَصْدُقُ فِيهِ هَذَا الْجِنْسُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْبَذْلِ وَالْمُوَاسَاةِ[2].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ تصدر بفعل الأمر (قُلْ) لتتشكل بذلك منظومة متكاملة في أدب المعاملة مع الوالدين على وجه الوجوب، فالدعاء لهما رحمة، والدعاء لهما بالرحمة رحمة، فعن أيّ دليل نبحث على رحمة الإسلام، وكل ما في الإسلام رحمة، سواء أظهرت مظاهرها أم خفيت. والْكَافُ فِي قَوْله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: لِلتَّشْبِيهِ الْمَجَازِيِّ يُعَبِّرُ عَنْهُ النُّحَاةُ، بِمَعْنَى التَّعْلِيلِ فِي الْكَافِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: ارْحَمْهُمَا رَحْمَةً تُكَافِئُ مَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَمْثِيلُ حَالَةٍ خَاصَّةٍ فِيهَا الْإِشَارَةُ إِلَى تَرْبِيَةٍ مُكَيَّفَةٍ بِرَحْمَةٍ كَامِلَةٍ، فَإِنَّ الْأُبُوَّةَ تَقْتَضِي رَحْمَةَ الْوَلَدِ، وَصِغَرَ الْوَلَدِ يَقْتَضِي الرَّحْمَةَ بِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدًا، فَصَارَ قَوْلُهُ: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ قَائِمًا مَقَامَ قَوْلِه: كَمَا رَبَّيَانِي وَرَحِمَانِي بِتَرْبِيَتِهِمَا. فَالتَّرْبِيَةُ تَكْمِلَةٌ لِلْوُجُودِ، وَهِيَ وَحْدَهَا تَقْتَضِي الشُّكْرَ عَلَيْهَا. وَالرَّحْمَةُ حِفْظٌ لِلْوُجُودِ مِنِ اجْتِنَابِ انْتِهَاكِهِ، وَهُوَ مُقْتَضَى الشُّكْرِ،

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠/٣٢٠-٣٢١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/٦٧-٦٨.

فَجَمَعَ الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِالدُّعَاءِ لَهُمَا بِالرَّحْمَةِ. وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ[1].

وَمَقْصِدُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ يَنْحَلُّ إِلَى مَقْصِدَيْنِ[2]:

أَحَدُهُمَا: نَفْسَانِيٌّ وَهُوَ تَرْبِيَةُ نُفُوسِ الْأُمَّةِ عَلَى الِاعْتِرَافِ بِالْجَمِيلِ لِصَانِعِهِ، وَهُوَ الشُّكْرُ، تَخَلُّقًا بِأَخْلَاقِ الْبَارِي تَعَالَى فِي اسْمِهِ الشَّكُورِ، فَكَمَا أَمَرَ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ أَمَرَ بِشُكْرِ الْوَالِدَيْنِ عَلَى نِعْمَةِ الْإِيجَادِ الصُّورِيِّ وَنِعْمَةِ التَّرْبِيَةِ وَالرَّحْمَةِ. وَفِي الْأَمْرِ بِشُكْرِ الْفَضَائِلِ تَنْوِيهٌ بِهَا وَتَنْبِيهٌ عَلَى الْمُنَافَسَةِ فِي إِسْدَائِهَا.

وَالْمَقْصِدُ الثَّانِي: عُمْرَانِيٌّ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ أَوَاصِرُ الْعَائِلَةِ قَوِيَّةَ الْعُرَى مَشْدُودَةَ الْوُثُوقِ فَأَمَرَ بِمَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ الْوُثُوقَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ، وَهُوَ حُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ، لِيُرَبِّيَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ التَّحَابِّ وَالتَّوَادِّ مَا يَقُومُ مَقَامَ عَاطِفَةِ الْأُمُومَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْأُمِّ، ثُمَّ عَاطِفَةِ الْأُبُوَّةِ الْمُنْبَعِثَةِ عَنْ إِحْسَاسٍ بَعْضُهُ غَرِيزِيٌّ ضَعِيفٌ، وَبَعْضُهُ عَقْلِيٌّ قَوِيٌّ.

ويمكن بيان الإحسان للولدين ومقتضياته بالتدرج الذي سيكون وفقًا للسلم الحجاجي على النحو التالي:

- وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرًا.
- قل لهما قولًا كريمًا.
- واخفض لهما جناح الذل من الرحمة (تذلل لهما).
- لا تنهرهما.
- لا تقل لهما: أفٍّ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٧٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ٧٣.

لقد شرع البيان القرآني في تفصيل أدب المعاملة مع الوالدين، ويظهر من خلال هذا السلم الحجاجي أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ يقع في أسفل السُّلمَّ، وذلك يقتضي عدم النهر أو الضرب، ثم تتصاعد درجة الإحسان بالتذلل لهما، وذلك يقتضي أن لا يسمعا إلا كل قول كريم، والقول الكريم يقتضي فعلًا كريمًا، وتصدر أعلى درجات السلم الدعاء لهما بالرحمة، والدعاء قد يكون في أثناء حياتهم أو بعد مماتهم، وذلك اعترافًا بفضلهما لكونهما سببًا في وجود الولد، ولتحملهما مشقة الرعاية والتربية في الصغر. على هذا النحو تتجلى رحمة الإسلام، رحمة بالضعيف. وجاء بها في هذا السياق على وجه الإلزام بالأوامر والنواهي الموظفة فيه، ولنا أن نلمس في هذا الإلزام رحمة فعبادة الله منجاة للإنسان، وبر الولدين فيه ما فيه من خير للإنسان ولو جهله أحيانًا، أو أخذته مشاغل الحياة عن الاهتمام بهما، ناهيك عن مشقة التعامل مع الإنسان في كِبره وشيخوخته يولد أحيانًا تنصلًا أو تهربًا أو حتى قسوة عليهما من قبل الأبناء، فيقع العقوق عن قصد أو من دون قصد، ومن ثَمَّ العقوبة بالعاق في الدنيا والآخرة، من هنا نلمس آثار رحمة هذا الأمر الإلهي بالوالدين والأبناء معًا.

وتستعمل أفعل التفضيل في سياق طلب المغفرة والرحمة من الله بناء على ما في التفضيل من طاقة حجاجية تجعل المفضل في أعلى درجات السلم الحجاجي ويمحو ما دونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨].

لو تأملنا هذه الآية وآيات كثيرة في القرآن الكريم، لوجدنا أن مفهوم الرحمة لا يتبدى فقط في لفظ الرحمة وللإخبار عنه، وإنما يتبدى أيضًا في جانب التوجيه الإلهي وإرشاده إلى الأسباب، التي تمهد له

الفوز والظفر برحمة الله ﷻ. ويتمثل هنا بالتحفيز والتنبيه إلى الدعاء، وإرشاد المخاطب إلى ذكر تتحقق به أسباب الرحمة، والله ﷻ عندما يرشد الإنسان إلى ذكر معين، فلا شك أن فيه الإجابة، وهذا مظهر من مظاهر رحمته بعباده وتفضله عليهم. فَأَمْرُهُ بِأَنْ يَدْعُوَ بِذَلِكَ يَتَضَمَّنُ وَعْدًا بِالْإِجَابَةِ[1].

وَوَجْهُ الاتِّصَالِ بين الآيتين أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا شَرَحَ أَحْوَالَ الْكُفَّارِ أَمَرَ بِالانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالالْتِجَاءِ إِلَى غُفْرَانِهِ وَرَحْمَتِهِ[2]. والعَطفَ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية بِاعْتِبَارِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾. فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْجُمْلَةِ خطاب النبي ﷺ بِأَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. وَفِي حَذْفِ مُتَعَلِّقِ (اغْفِرْ وَارْحَمْ) تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ فِي تَعْيِينِ الْمَغْفُورِ لَهُمْ وَالْمَرْحُومِينَ، وَالْمُرَادُ مَنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[3].

ثم أمر رسول الله بالدعاء في المغفرة والرحمة والذكر له تعالى بأنه خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، لأن كل راحم متصرف على إرادة الله وتوقيفه وتقديره لمقدار هذه الرحمة، ورحمته تعالى لا مشاركة لأحد فيها، وأيضًا فرحمة كل راحم في أشياء وبأشياء حقيرات بالإضافة إلى المعاني التي تقع فيها رحمة الله تعالى من الاستنقاذ من النار[4]. وهذا جسدته صيغة التفضيل ﴿خَيْرُ﴾ ويدل اسم التفضيل على الزيادة في أصل الفعل غالبًا، ولا يخلو المفضل عليه من مشاركة المفضل في المعنى في الغالب، وعندما يضاف اسم التفضيل يجوز فيه المطابقة مع المفضل عليه، ويجوز فيه الإفراد، على نحو ما ورد في الآية الكريمة، أي: أن اسم التفضيل مفرد، والمضاف إليه جمع، والإفراد يقصد به التفضيل تنصيصًا[5]، من هنا كان استعمال

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٣٧
(٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٥٩.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٣٧
(٤) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٥٩٣.
(٥) ينظر: حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: ٢/ ٤٦. وينظر: معاني النحو: ٤/ ٢٦٧و٢٧٢.

اسم التفضيل ﴿خَيْرُ﴾ وإضافته إلى لفظ (الراحمين) مفضٍ إلى أن هناك راحمين غير الله من خلقه، بيد أن صفة الخيرية مقترنة بالله دون غيره، وأن كل رحمة هي دون رحمة الله ﷻ، بل ولا تدانيها، فضلًا عن القصر بقوله: (أنت): التي عززت هذا التفضيل، وعلى هذا النحو تنبري هذه الأدوات اللغوية لتعبر عن المقاصد القرآنية، بأسلوب ألفه العرب، وبألفاظ مشحونة بطاقة حجاجية ودلالية لتصل بالمتلقي إلى أن يوقن أن الله وحده هو الرحمن الرحيم، ورحمته أوسع من أن تدركها بصيرة البشرية.

وترد جملة التوكيد لكونها يمكن قياسها وفقًا لأوضاع المرسل إليه، التي تترتب عليها أحوال الخبر (الخبر الابتدائي، والخبر الطلبي، والخبر الإنكاري). فالنوع الأول للمتلقي الخالي الذهن، والنوع الثاني يستعمل مع المتلقي المتردد في تصديق الخبر، والنوع الثالث يستعمل عندما يكون المتلقي منكرًا للخبر. وكل هذا التدرج في الخطاب مراعى فيه أحوال المتلقي، ومن هنا يبرز البعد الحجاجي لهذا الأسلوب، إذ القصد منه إقناع المخاطب والتأثير فيه. من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

لقد تصدرت الآية الكريم بعنصرين تنبيهيين تمثلا في الأمر (قُلْ) والنداء (يا عبادي)، ولعل في ذلك تمهيدًا لما سيأتي من كلام فيه إخبار لن يكون عاديًّا بكل المقاييس، فالسياق سياق مغفرة ورحمة، وظف فيه البيان القرآني عناصر لغوية تضافرت في ترسيخ مفهوم المغفرة والرحمة، بل والدعوة إلى عدم القنوط واليأس.

فَالْخِطَابُ بِقَوْلِه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تَمْهِيدٌ بِإِجْمَالٍ يَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْآيَاتِ بَعْدَهُ، وَعُمُومُ (عِبَادِيَ) وَعُمُومُ صِلَةِ (الَّذِينَ أَسْرَفُوا) يَشْمَلُ أَهْلَ الْمَعَاصِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ مِنَ الْخِطَابِ

الْمُشْرِكِينَ، عَلَى عَادَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي، الَّتِي تُفَرَّغُ فِي قَوَالِبِ تَسَعُهَا. وَالْإِسْرَافُ: الْإِكْثَارُ. وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْإِسْرَافُ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُعَدَّى إِلَى مُتَعَلِّقِهِ بِحَرْفِ مِنْ، وَتَعْدِيَتُهُ هُنَا بِـ(عَلَى)، لِأَنَّ الْإِكْثَارَ هُنَا مِنْ أَعْمَالٍ تَتَحَمَّلُهَا النَّفْسُ وَتَثْقُلُ بِهَا، وَذَلِكَ مُتَعَارَفٌ فِي التَّبِعَاتِ وَالْعُدْوَانِ، تَقُولُ: أَكْثَرْتُ عَلَى فُلَانٍ، فَمَعْنَى أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَنَّهُمْ جَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا تُثْقِلُهُمْ تَبِعَتُهُ، لِيَشْمَلَ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ شِرْكٍ وَسَيِّئَاتٍ[1]. من هنا وبإزاء هذا الإسراف الذي يولد ثقلًا وعناء على النفس يدفع بصاحبه نحو اليأس والقنوط من أن يغفر الله له، وهذا الشعور لا تستشعره إلا نفس مؤمنة، تكابد وطأة ثقل الذنب وتطمح للخلاص بمغفرة، والآية بعد ذلك تنبيه للنفس الغافلة للرجوع إلى الله، لذا نشهد في هذا التتابع الجملي ولاسيما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فالمفهوم من الجملة الأولى ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، يؤكده المنطوق في الجملة الثانية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فهذه الجملة تعليل لما سبقها، وهي إنما تأتي لتعيّن بمنطوقها المفهوم الذي تقتضيه خطة الخطاب، مُقْصِيَةً (الجملة الثانية) في الوقت نفسه مفاهيم أخرى محتمل ظهورها في عالم الجملة، وهي تسد الثغرات التي يمكن أن تتخلل كيان الكلام فَتَقْعُدَ به عن أداء وظيفته الحجاجية وأهدافه الإقناعية، التي يروم تحقيقها في أذهان المتلقين[2]. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى أَعْظَمِ بِشَارَةٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلًا أَضَافَ الْعِبَادَ إِلَى نَفْسِهِ لِقَصْدِ تَشْرِيفِهِمْ، وَمَزِيدِ تَبْشِيرِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِسْرَافِ فِي الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْقُنُوطِ مِنَ الرَّحْمَةِ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْثِرِينَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَالنَّهْيُ عَنِ الْقُنُوطِ لِلْمُذْنِبِينَ غَيْرِ الْمُسْرِفِينَ مِنْ بَابِ الْأَوْلَى، وَبِفَحْوَى الْخِطَابِ، ثُمَّ جَاءَ بِمَا لَا يُبْقِي بَعْدَهُ شَكٌّ، وَلَا يَتَخَالَجُ الْقَلْبَ عِنْدَ سَمَاعِهِ ظَنٌّ، فَقَالَ:

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/٤١-٤٢.
(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٧٣.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، فَالْأَلِفُ وَاللَّامُ قَدْ صَيَّرَتِ الْجَمْعَ الَّذِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ لِلْجِنْسِ، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ اسْتِغْرَاقَ أَفْرَادِهِ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ كَائِنًا مَا كَانَ، إِلَّا مَا أَخْرَجَهُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ وَهُوَ الشِّرْكُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] ثم لم يكتف بما أخبر عباده مِنْ مَغْفِرَةِ كُلِّ ذَنْبٍ، بَلْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (جَمِيعًا) فَيَا لَهَا مِنْ بِشَارَةٍ تَرْتَاحُ لَهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ ظَنَّهُمْ بِرَبِّهِمُ الصَّادِقِينَ فِي رَجَائِهِ. وَمَا أَحْسَنَ مَا عَلَّلَ سُبْحَانَهُ بِهِ هَذَا الْكَلَامَ قَائِلًا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فَهُوَ كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ عَظِيمُهُمَا بَلِيغُهُمَا وَاسِعُهُمَا[1]، وتساوق التعليل مع التأكيد لمنطوق الكلام الذي قبله ومفهومه بأكثر من مؤكد، تمثل أولًا بـ(إنَّ) وبالقصر بقوله (هو) وبصيغ المبالغة (الغفور) (الرحيم)، فهو وليس غيره الذي يغفر ويرحم، ومغفرته لا تدانيها مغفرة، ورحمته لا تدانيها رحمة، فبلغت هذه الجملة كل هدف وغاية قصد إليها الحق ﷻ من هذا الخطاب، وتتحول بذلك مع التعليل الذي قبلها إلى خطاب عام لا يتعلق بالمقصودين من الآية، وإنما كل ذي ذَنْب من المؤمنين، معززة بكل الأدوات اللغوية المذكورة آنفًا، والتي شحنتها بطاقة حجاجية وإقناعية لا يمتلك معها المتلقي إلا التسليم والاقتناع.

ومن استعماله صيغة المبالغة والتوكيد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان:٥-٦].

جاءت الآية الكريمة ردًّا على مقولات سردها المشركون تطعن بمصداقية ما جاء به القرآن، وإنه وحي من الله ﷻ، من هنا تصدير الرد بالفعل (قُلْ) يعد عنصر حجاج أول، بأن القرآن ليس بإفك ولا أساطير اكتتبها، وللإيماء أنه منزل من الله، ولابد في هذا المقام من ملاحظة مدى التعالق بين الفعل وما يليه من كلام تعالقًا يؤدي وظيفة الإقناع وبسط الحجة وإقامتها على

(١) ينظر: فتح القدير: ٥٣٨/٤.

المتلقين من الخصوم، أما الاحتجاج على فيض رحمة الله، فظهر بالتذييل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فجملة التوكيد هذه جاءت لتقرر حقيقة أنه قد يتسلل للأذهان أن مقترف هذه الأفعال والأقوال حقيق على الله أن لا يغفرها له، وأن لا تناله رحمة منه، فجاء الخبر على هذه الصيغة من التوكيد لدفع كل شك وإنكار، ولاسيما أنه اقترن بصيغ المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للتدليل على عِظَم هذه الرحمة والمغفرة. والخبر بعد ذلك للتنبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات المحكية، لكن أخر عنهم لما أنه ﷻ أزلًا وأبدًا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير، فكأنه قيل: إنه جلَّ وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار، فلذلك لا يعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه مع كمال استجابكم إياها وغاية قدرته ﷻ عليها ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صبًّا، وجوز أن يكون الكلام كناية عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال: ذكر المغفرة والرحمة بعد ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب العظيمة المتجاوزة عن الحد مغفورة إن تابوا، وأن رحمته واصلة إليهم بعدها، وأن لا ييأسوا من رحمته تعالى بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصمة الشديدة[1]. وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨].

وتأتي صيغ المبالغة في سياق الأوامر الشرعية لتكشف للمتلقي عن أن الرحمة والمغفرة متماهية مع كل أمر وتشريع إلهي على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب:٥٩].

جاءت هذه الآية لترصد عادة ألفتها النساء، إذ "كان من عادة العربيات

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، أبو الثناء الآلوسي: ٩/٤٢٦-٤٢٧.

التبذل في معنى الحجبة، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكر فيهن، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأمرهن بإدناء الجلابيب، ليقع سترهن، ويبين الفرق بين الحرائر والإماء، فيعرف الحرائر بسترهن فكيف عن معارضتهن من كان غَزِلًا [أي: من عرف عنه كثرة التغزل بالنساء] أو شابًا، وروي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤية النساء ومعارضتهن ومراودتهن"[1].

والتذييل الذي ختمت به الآية في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ جاء متناسبًا للقضية المطروحة، فهي تمس النساء من جانب، فالحجة الأولى هو التزام اللباس الشرعي طاعة لله ﷻ، الذي لم يشرع شرعًا إلا وفيه مصلحة للعباد، وهي هنا حفظ الجسد من أن تغتاله أعين الفاسدين، وحفظ النفس من الأذى، فضلًا عن أن فيه صَفْحًا عَمَّا سَبَقَ مِنْ أَذَى الْحَرَائِرِ قَبْلَ تَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى هَذَا الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ من جانب آخر. واستعمال فعل الكينونة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ القصد منه التعبير عن الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، أي: أزلًا وأبدًا، وفي ذلك تعزيز لكونه ﷻ ﴿غَفُورًا﴾ أي: محَّاء للذنوب عينًا وأثرًا ﴿رَّحِيمًا﴾ مكرمًا لمن يقبل عليه، ويمتثل أوامره، ويجتنب مناهيه[2]. فخروج المغفرة والرحمة من قيد الزمان والمكان والأشخاص يوقع أبلغ الأثر في نفس المتلقي، ولاسيما النفوس الأوابة بعد زللها.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: ٤/ ٣٩٩.
(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٥/ ٤١٢

الخاتمة

على هذا النحو تتجلى القوة الحجاجية للفعل (قُلْ)، وذلك بما يحمله من مقتضى معجمي وتداولي، يرشحه ليكون عنصرًا فاعلًا وطاقة حجاجية، قادرة على إقناع المتلقي بالخطاب الذي يلي هذا الفعل، ولقد شكل مع أدوات لغوية كثيرة عنصر تنبيه، ولا سيما أن الآمر هو الله ﷻ، والمأمور الرسول ﷺ، والخطاب قيد الدراسة كان مختصًّا بآيات الرحمة التي تنوعت سياقاتها القضايا المطروحة فيها، بحسب أغراضها ومقاصدها، ولم يقتصر ذكر رحمة الله على مواضع التبشير، وإنما نجد رحمة الله ماثلة في مواضع التهديد، واحتدام الجدل مع خصوم القرآن، بإمهالهم وتأجيل العقوبة لعلهم يؤمنون بدعوة الرسول ويصدقون بالقرآن، ولا يخفى على ذي الفطرة السليمة أن الله غني عن إيمانهم، وهو ﷻ إن أمهلهم فهذا من حلمه ولطفه بعباده، وهذا مظهر من مظاهر رحمته ﷻ بخلقه، فتتجلى آثار رحمته حتى في تهديده. كل هذه المدلولات وغيرها عمد القرآن إلى التعبير عنها بأساليب لغوية، تحمل ما تحمله من مهارات أسلوبية ومؤثرات بلاغية وطاقة حجاجية، لتوصل المتلقي إلى الاقتناع والتسليم بما جاء به القرآن، بل ويتبنى الإيمان بالله ﷻ فكرًا وعقيدةً.

فهرس المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٢. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت–لبنان ٢٠٠٤م.
٣. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش، الطبعة الأولى، جامعة منوبة/ كلية الآداب/ تونس– المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م.
٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، المحقق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الطبعة: الأولى دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٨هـ.
٥. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٤٢٠هـ.
٦. التحرير والتنوير، ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ.
٧. التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة، بيروت ٢٠٠٥م.
٨. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم.
٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م
١٠. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، الطبعة الثانية، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن ٢٠١١م

١١. التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤١٠هـ.
١٢. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، الطبعة الثانية، دار الفارابي، بيروت- لبنان ٢٠٠٧م.
١٣. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.
١٤. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، أبو الثناء الآلوسي، المحقق: علي عبدالباري عطية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
١٥. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، المحقق: عبدالرزاق المهدي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٢هـ.
١٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة السابعة عشرة، دار الشروق، بيروت- القاهرة ١٤١٢هـ.
١٧. الكتاب، سيبويه، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٨. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ.
١٩. لسان العرب، ابن منظور الأنصاري الإفريقي، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ.
٢٠. اللسان والميزان العقلي أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٨م.
٢١. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيد المرسي، المحقق: عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الطبعة الأولى،، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
٢٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيِّم الجوزية، المحقق: عماد عامر، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢٤. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، الطبعة السادسة، دار المعرفة بيروت - لبنان ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٢٥. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت ١٤١٤هـ.
٢٦. معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، الطبعة الثانية، شركة العاتك للطبع والنشر، القاهرة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٢٧. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت
٢٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

- **الدوريات:**

١. الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، عالم الفكر، العدد٢، المجلد ٤٠-٢٠١١
٢. سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، السنة ٢٥- العدد: ٦٢-٦٣، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

- **الرسائل الجامعية:**

١. إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية، رسالة

تقدمت بها صفية حمادو إلى جامعة مولود معمري-تيزي وزو/ الجزائر- كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية لنيل شهادة الماجستير.

- **بحوث من الإنترنت:**

١. الحجاج في اللسانيات التداولية.. دراسة لنماذج من القرآن الكريم، ابن أحمد عالم فايزة، http://kalema.net/

٢. من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين، عمران نزال، http://almarefh.net/